تعليمية اللغة العربية وأثرها في تعلّم الطفل الجزائري في ظل التعدد اللهجي في المجتمع.

أ.عمر بلعباسي
جامعة سعيدة

يرى الكثير من الباحثين اللغويين المعاصرين إلى القول بوجود الازدواجية في سائر اللغات البشرية ؛ لأنها تدور في مجتمعات متنوعة، وكل مجتمع يتضمن خليطا من البشر باختلاف أصولهم وأعراقهم .لذا فالتنوع اللغوي نتيجة حتمية لتلك الفصائل الاجتماعية وثمرة لتفاعلها. "ولأن اللغة العربية تقع ضمن منظومة اللغات العالمية الحية ، فقد ذهب أولئك إلى القول بالازدواجية في العربية قياسا على اللغات الأخرى دون تمحيص أو توضيح..."1 ويظهر جليا ذلك في المجتمع الجزائري الذي نعيش تحت كنفه وكيف تختلف تلك اللغات و اللهجات العامية خليطا رهيبا بين العربية والعامية والفرنسية ،وكيف أثرّ ذلك على المتعلمين في المدرسة خاصة الأطفال في المستوى الابتدائي والذي يتجاذبه هذا التنوع والتعدد اللهجي .فهو بين صعوبة العربية بالنسبة له وقوة انتشار اللغة الهجينة العامية الثانية .

الإشكالية: فارتأينا في هذا البحث المتواضع أن نقف على الأسباب والمشاكل وإيجاد الحلول لتعليم العربية داخل وخارج إطارها الاكاديمي المدرسي ، ونحن نعلم المجتمع وانتشار العامية واللغة الثانية فيه بشكل رهيب.

لقد سادت العربية الفصحى خلال عصور متوالية في مختلف البيئات الإسلامية سيادة مطلقة دون أن يرميها أحد بأي تهمة تقلل من شأنها بين اللغات، و لم يثبت أن اشتكى أحد من عيب أو قصور أوعجز فيها، بل كان التنويه كبيرا بإمكاناتها المتعددة، وخصائصها المميزة لها عن غيرها من اللغات بالنظر إلى مكوناتها وقابليتها للاشتقاق، وتعدد مجالات إغنائها، وقدرتها على استيعاب مختلف الحمولات والمعارف، فضلا عن جمالية إيقاعها وموسيقيتها المتميزة. ومن يتأمل واقع اللغة العربية اليوم، ثم ينظر إلى مسيرتها عبر تاريخها الطويل الحافل، سيلاحظ أنها قد مرت بمجموعة من المراحل المتفاوتة المتأرجحة بين الازدهار أو السير العادي في الغالب، وبين التراجع أحيانا، إلا أنها فيما يبدو لم تشهد حملة معادية منظمة وشرسة، مثلها حدث خلال مرحلة المد الاستعماري على امتداد الوطن العربي والعالم الإسلامي، وكذلك خلال ما يسمى بمرحلة الاستقلال، لأن الأمة وإن كانت قد تخلصت من القوات العسكرية، فقد ظلت تعاني ولا تزال من أنواع أخرى من الهيمنة، في مقدمتها الهيمنة الفكرية أو الغزو الفكري الذي آل اليوم بعد انكشاف أساليبه إلى ما يعرف بالعولمة التي تسعى إلى إلغاء الهويات، وتذويب الخصوصيات، في إطار ما يعرف بالنظام العالمي الجديد ومنظومته المرتبطة به.

والمثير للغرابة والعجب أن الحملات توجه إلى اللغة في ذاتها لا إلى أهلها، مع أن القصور الذي تُرمى به ليس راجعا إليها، بقدر ما هو كامن في أبنائها، ولاسيما والإجماع حاصل عند علماء الغرب أنفسهم على أن العربية من أكمل اللغات، ويكفي الاطلاع على مجموعة من معاجمهم كمعجم لاروس، أو معجم "لالند" للوقوف على هذه الشهادات.

1-حرب العربية والمؤامرة عليها:غير أن المغرضين تألبوا وتجاهلوا تلك الحقائق، وراحوا يختلقون الأسباب تلو الأسباب للتشكيك في إمكاناتها، وسعوا إلى إبعادها عن مصادر القرار، وحاولوا فصل المسلمين عن ماضيهم لطي إنجازات الأسلاف بهذه اللغة، مع تلميع اللغات الأجنبية، وتشجيع اللهجات بكل الوسائل الممكنة، وفي هذا الجو ظل لدعاة التغريب مجال لبث أفكارهم، وترويج دعواهم، ثم سلموا المشعل لتلامذتهم وأتباعهم فتبنوا مقولاتهم وصاغوها صياغة جديدة، وتوسلوا بما توهموا أنه يغطي حقيقة نواياهم، أو يضفي على حملتهم وموقفهم طابع المشروعية، ولكن دون طائل كبير، وذلك كما يقول أحد كبار المجمعيين لأن: "الفصحى تراث الماضي ومجد الحاضر، بقيت على الدهر، وسارت مع

الزمن، بحيث أضحت لغة قديمة حديثة، تجمع بيت التالد والطارف، وتربط الناطقين بها بأوثق رباط، وقل أن تلتقي معها في هذا لغة أخرى[32].

هذا فضلا عن أنها لغة القرآن الكريم، وبحفظه الذي تولاه الله عز وجل نفسه يتم حفظها، لأنها وعاؤه ولسانه حفظها الله في حفظه، ومن هنا تعددت فضائلها وتنوعت مزاياها، وازدادت الجهود في خدمتها وتطويرها والارتقاء بها.

والحقيقة أن تجدد الحملة على الفصحى ليست إلا لأنها لغة القرآن الكريم، ولغة التعبد، ولغة الفكر والأدب والحضارة والعلم، بهدف إبعادها عن الصدارة والتشكيك في قدراتها وإمكاناتها، ولأن إضعافها في زعمهم إضعاف لأهلها.

2-واقع العربية:

إن تأمل واقع العربية الفصحى يؤدي إلى رصد مظاهر التراجع الكبير في العقود الأخيرة، ولاسيما وهي ليست عرضة للتحدي الخارجي فحسب، بل تعاني أيضا من قصور أبنائها وتقصيرهم، لا في المجالات العامة والاستعمال في الخطاب والإبداع فقط، بل حتى في المجال التربوي والتعليمي الذي يعد مجالها الطبيعي، فهي إما مبعدة أو مهمشة في عدد من المؤسسات والمستويات التعليمية في معظم البلدان العربية، وإما تُعامل كأي لغة أخرى من حيث مناهج التدريس وطرق التلقين، بما يترتب عن هذين الموقفين من انعكاسات سلبية على أبناء الأمة، وعلى لغتهم الفصحى في آن واحد، وذلك ما يجعلها مستهدفة استهدافا مزدوجا، من الداخل والخارج، مع اختلاف طبيعة كل نوع منهما، ولكنهما معا يسهمان في معاناتها.

ولكي ندرك فداحة هذا الواقع المرير نقف عند نموذج نختاره من أكثر الدول العربية اهتماما بالعربية، وأحرصها على التعريب في الإدارة وفي التعليم، بما في ذلك التعليم العالي بجميع تخصصاته، وفي مقدمتها التخصصات العلمية الدقيقة التي تدرس في معظم البلاد العربية والإسلامية بالإنجليزية أو الفرنسية، مثل الهندسة والطب والصيدلة والنبات وما إلى ذلك، بينما تدرس هذه العلوم في هذه الدولة بالعربية وأعني بذلك دولة سورية، ومع ذلك لا تزال هناك شكوى من إهمالها حتى في هذه الدولة، كما في غيرها.

وهكذا نجد أحد الخبراء الممارسين للتربية والتعليم، على امتداد عدة عقود من السنين، يشكو من تهميش الفصحى وإيثار العامية في مجال التدريس، ويشير إلى العواقب الوخيمة لهذا الإهمال في الحاضر والمآل، ولاسيما بالنسبة للناشئة والأجيال الحاضرة التي هي عمدة الغد.

يقول هذا الخبير الذي قضى حياته في التدريس، عن المجال التعليمي والتربوي، وعن مكانة العربية الفصحى في المؤسسات العلمية، من معاهد وجامعات ودور علم، في مقال حديث جدا له إنه لا يخالجه الشك" أن التقصير فيه كبير، وكبير جدا إذ لا تكاد تجد معلما أو أستاذا في مراحل التعليم الثلاثي (ابتدائي، إعدادي، ثانوي) حتى الجامعي، يجيد التكلم بالفصحى بطلاقة، أو يبتدئ محاضرته ويستمر فيها إلى نهايتها دون أن يخلطها بالعامية[4].

وأمام هذه الظاهرة السلبية يعبر هذا الباحث عن أسفه، ويؤكد وعيه بخطورة هذه السلبية التي كثيرا ما نَصَحَ بضرورة تجنبها بقوله.

"أقول هذا وقلبي يعتصر ألما إذ عانيت هذا الواقع المؤلم ربع قرن أو يزيد، حين ممارستي لمهنتي في تدريس مادة التربية الإسلامية في المرحلتين: الإعدادية والثانوية، في سوريا وخارجها.

وكم كنا ننبه إخوتنا المدرسين والمعلمين على ضرورة التزام الفصحى في دروسهم النظرية والعملية، ولكن ما كنا نجد آذانا صاغية، وكان خوفنا في هذا الجانب على الطلاب والتلاميذ، لأن إهمال الفصحى يرتد سلبا على ناشئتنا وأجيالنا الحاضرة والقادمة[5].

وهو ينبه على هذا التقصير تجاه الفصحى عمداً أو تجاهلاً عند فئات من المدرسين، ويحذر من خطورة نتائجه فيقول" إن هذا العمد أو التجاهل للفصحى أمر خطير، ينبغي أن يكون التنبيه عليه مستمرا من الموجهين التربويين والمتخصصين في المواد الدراسية كافة، وفي مجالات حياتهم الفردية والأسرية والاجتماعية، وحتى في أحاديثهم العرضية... واليوم، وبعد مرور ثلاثين سنة لا ألمس إلا التدنيً، سواء في المجالات العلمية ومؤسسات التعليم، أو دوائر الحكومة ومخاطبة رجالاتها وكتاباتهم وتقاريرهم، فضلا عن وسائل الإعلام والصحافة التي تجاري السوقة... ".[6]

قد يكون هذا التقصير تلقائيا، ولكنه لا يخلو من خطورة، لأنه يدعم موقف المبشرين ومعظم المستشرقين وعدد كبير من المستغربين من العربية الفصحى، وهو موقف يقوم على التحامل عليها، والاهتمام باللجهات الإقليمية وتشجيع الدراسات الخاصة بها، وإغراء الطلاب والباحثين الشباب بإنجاز بحوثهم و أطاريحهم الجامعية بغير العربية الفصحى، وتحفيزهم على ذلك بتخصيص المنح لهم، وتوجيه وسائل الإعلام لتسليط الأضواء عليهم، وتنظيم الندوات والمدارسات واللقاءات في موضوعات وقضايا تتصل باللهجات، وتكتب تلك البحوث غالبا بلغات أجنبية، ويكفي إلقاء نظرة سريعة على دليل الرسائل الجامعية التي أنجزها باحثون من البلاد العربية في مجموعة من الجامعات الغربية للوقوف على الكم الهائل، والتنوع الكبير في هذا المجال.

3-دعوة إلى التأني:

غير أنه ينبغي هنا عدم التسرع تجاه هذا الأمر، فدراسة اللهجات الإقليمية بدافع معرفي، وبمناهج علمية موضوعية، ولغايات نبيلة، تدعم وحدة الأمة ولا تفتت مكوناتها، أمر لا يمكن رفضه، لأنه عمل علمي يتيح كشف المجهول، وتحليل الظواهر والبحث في القضايا من منظور علمي محض،لا مجال فيه للعصبية أو التحامل على الآخر أو ما أشبه ذلك، ولكن المرفوض أو المذموم هو كل ما قام على روح عدائية مبيتة، ونزعة متحاملة متعصبة، وباعث ذاتي مغرض، وخلفية فكرية ملغومة بشحنات الكراهية والبعد عن التسامح ورفض الحوار، والرغبة في الإقصاء.

نماذج من دعوات المبشرين وأتباعهم:

لتوضيح طبيعة الموقف المتحامل على الفصحى ومعاناتها من معاول الهدم، وإدراك خلفية هذه الحملة وأبعادها، ومعرفة البديل الذي يتبناه أصحاب هذا التوجه، نقف عند نماذج من مجموعة من الآراء والدعوات عند المبشرين وأتباعهم.

لقد قامت هذه الدعوات على ثلاثة عناصر أو واجهات تتكامل فيما بينهما في موقفها من الفصحى، وتتضافر على خلق روح الإهمال حينا، والعداء حينا آخر تجاهها.

الواجهة الأولى: رمي العربية الفصحى بالقصور والعجز، ووصف قواعدها بالصعوبة والتعقيد بهدف التنفير منها.

الواجهة الثانية: الدعوة إلى استعمال العامية، لا إعجابها بها أو استحسانا، بل لاتخادها سلاحا لضرب الوحدة العربية الإسلامية، وإضعاف قوة الأمة، متمثلة فيما تحققه الفصحى من وحدة وتماسك، وهم يدركون أن الأمر لايقتصر على الألفاظ والعبارات المجردة، بل هو أبعد وأعمق من ذلك بكثير، ولا قيمة لما يدعيه أصحاب هذه الدعوات المغرضة من أن الفصحى تمثل مستوى صعب الفهم بالنسبة لبعض الفئات الاجتماعية التي تعاني من الأمية، أو ذات التكوين البسيط كالعمال والفلاحين وعامة الناس، وقد جند هؤلاء ما استطاعوا من وسائل الإعلام ذات الأثير القوي في النفوس، وعقدوا

الندوات والملتقيات الثقافية، وحاوروا كبار الشخصيات من ذوي النفوذ والتأثير، وقدموا المسرحيات العامية، ونشروا الدواوين باللهجات المحلية، وأصدروا اكتب والدراسات وأضفوا عليها الطابع العلمي تمويها منهم، وخصصوا الجوائز التقديرية والتحفيزية لمن التزم بخطهم وسار في دربهم.

الواجهة الثالثة : إغراء الشباب الصاعد من أبناء الوطن العربي والإسلامي باستعمال اللغات الأجنبية بديلا للعربية الفصحى، وتنظيم المسابقات وتخصيص الجوائز لمكافأة المتفوقين في تلك اللغات، وربط دواليب دواوين الدولة بالغرب ولغاته، حتى يبدو الأمر وكأنه ضرورة حتمية لا مناص منها.

4--خطورة هذه الأهداف:

وتبدو هذه الأهداف خطيرة جدا في هذا المجال، لأن إهمال الأمة للفصحى أوعدم استعمالها يعني سجنها، أو التقاعس في خدمتها والارتقاء بها، والوقوع ضحية التغريب أو الاستغراب، وتفضيل لغة الآخر بديلا، ومن شأن ذلك كله أن يجعل الأمة في هذه الحالة ضحية للتشتت، وفريسة للضعف، وذات قابلية للتنكر لمقومات هويتها.

وقد أدرك خصوم الفصحى خطورة دعواهم فراحوا يهيئون النفوس لتبنيها، فألفوا وكتبوا وحاضروا ووظفوا مختلف وسائل الإعلام المتاحة، ووجهوا الفنون توجيها منحرفا لخدمة أهدافهم، إلى غير ذلك من جهودهم ومواقفهم، ويكفي أن نستحضر هنا، على سبيل المثال لا الحصر، جهود الدعاة إلى تبني العامية في البلاد العربية، فقد بدأت في مصر على يد بعثات المبشرين، وفي مقدمتهم المبعوث البريطاني وليم ولككس منذ سنة 1883م، وقد عمل مهندسا للري بالقاهرة في الظاهر، ولكنه كان مبشرا في الوقت ذاته، وفي لبنان كان هناك المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون الذي كان مستشاراً لوزارة الخارجية الفرنسية لشؤون المستعمرات في المشرق العربي، وكان هناك وليام جيفوردبلغراف الذي تبنى هذه الدعوة ونشرها كذلك، والقائمة طويلة، ولايختلف المغرب عن المشرق في تفشي هذه الدعوة الهدامة، غير أن الأخطر من ذلك هو تبني أبناء العروبة لدعوات المستشرقين والمبشرين، وسعيهم الحثيث بكل جرأة إلى التصريح عبر وسائل الإعلام، وخلال كتاباتهم وتآليفهم ومحاضراتهم إلى نشر أفكارهم على أوسع نطاق، ويكفي أن نذكر من بين تلامذتهم عبد العزيز فهمي الذي دعا إلى التخلي عن الحروف العربية وتعويضها باللاتينية كما فعل كمال أتاتورك في تركيا، بل ذهب عبد العزيز فهمي إلى أبعد من ذلك حين تحدث عن صعوبة العربية ومشقاتها على الناس، وجعل ذلك سبب من أسباب تأخر الشرق، فقال " هذه المشقة تحملني على الاعتقاد بأن العربية من أسباب تأخر الشرقيين، لأن قواعدها عسيرة ورسمها مضلل" [7]

وهناك غيره، مثل سلامة موسى، وأنيس فريحة، وسعيد عقل، وميخائيل الصباغ صاحب كتاب (الرسالة التامة في كلام العامة) وكتاب (المنهاج في أصول الكلام الدارج).

وأما أقوالهم التي تعكس حقيقة دعواهم فكثيرة ومتنوعة، فهذا سلامة موسى ينطق بلسان أستاذه المبشر المهندس وليام ولككس، ويجمل دعوته بقوله: " والهم الكبير الذي يشغل بال (السير ولككس) بل يقلقه هو هذه اللغة التي نكتبها ولا نتكلمها، فهو يرغب في أن نهجر ونعود إلى لغتنا العامية فنؤلف بها وندون بها علومنا وآدابنا" [8]

-5-واقع الفصحى في المدرسة لجزائرية:

أ- الطفل وواقع الفصحى في المجتمع الجزائري:إن اللغة ليست ألفاظا وتراكيب يستخدمها الناس للتعبير عن الافكار و المشاعر فقط ،بل تعد مرتكزا مهما من مرتكزات الأمة فلا يمكن الحفاظ على الأفكار الهدّامة . قال حكيم صيني : إنني لا أهتم بالذين يضعون للناس قوانينهم قدر اهتمامي بمن يكتبون لهم أغانيهم. ويروى أن أرسطو قال لتلميذه إسكندر

الأكبر :" إذا خرجت للحرب وفتحت مدينة ،فاذهب وابحث عن كاتب أغانيها ،فهو حاكمها"9 و الأغاني تكتب بلغة ويسمعها الكبير وخاصة الصغير .

تعتبر اللغة الطريق إلى المستقبل ،لا يمكن صناعته و تشكيله إلا بها .و يرتبط الإنسان مع اللغة بعلاقة اندماجية بدأت مع بداية الخلق وتجلت في أعمق صورها عندما علّم الله عز وجل آدم الأسماء كلها .قال تعالى :"وعلم آدم الاسماء كلها"10.

و الطفل باعتباره واحد من هذا المجتمع الذي يعيش فيه لابد أنه يشرب من معين لغة قومه لأنها تحتوي على ثقافته وأفكاره وعاداته ودينه الذي تشكل هذه الأمور كلها شخصيته مستقبلا. لكن نعيش اليوم مسخا لغويا إذا اعتبرنا ما يدرج على ألسنة العوام وغير العوام من لغة هجينة وربما أصبحت اللغة الهدف هي اللغة الطاغية على الكلام و المعاملات و حتى الإعلانات المنتشرة على المحلات والشركات والمؤسسات مما جعل الطفل يصير في دوّامة من أمره وتختلط عليه الأمور أي اللغة يتعلمها ولربما نفر من العربية إلى لغة ركيكة تحمل دارجة وفرنسية فتحدث مشكلة اضطراب شخصيته لاضطراب لغته التي ينطق بها .وهذا أمر مستهدف لطمس هوية الجزائريين العرب من خلال طمس لغتهم .في ظل العولمة التي جاءت من الغرب .حيث تعدّ الفلسفة اللغوية أساس هذه المؤامرات ضد أبنائنا خاصة و مجتمعنا عامة .

فعلينا اليوم إعادة النظر في برامجنا ومنظومتنا التعليمية؛ من خلال بعث اللغة العربية من جديد ومحاولة جعلها لغة العلوم كلها وهي كذلك .وبذل الجهود في تعليمها لأبنائنا وتيسير علومها من خلال تيسير مناهج تعلمها وتعليمها .

– واقع و أفاق تعليم العربية في المدرسة الجزائرية:اللغة يعد تعليم اللغة العربية في المدارس الجزائرية من بين الأولويات التي تبذل الوصايات والمنظومة التربوية جهودا دبارة لتحقيقها ،لمكانة هذه اللغة في تكوين وصقل هوية أبنائنا .

لكن الواقع يعكس غير هذا نظرا لسيطرة العامية واللغة الفرنسية على تعاملات المجتمع الجزائري و المحيط الذي عيش فيه الناس وخاصة الطفل الذي يجد نفسه في تناقضات ما يدرسه وما يراه خارج المدرسة .فهذه الثنائية المتجاذبة فيما بينها جعلت الطفل الجزائري ينفر من العربية لصعوبتها في رأيه و إيثار لغة بسيطة سهلة للتكلم و التعلم ربما .فمشكلة جيلنا اليوم هي مشكلة ازدواجية اللغة في المجتمع الجزائري و هي ازدواجية بين العربية و الفرنسية على عكس الدول العربية الاخرى فمشكلة العربية ربما أقل حدّة عندهم باعتبار لهجاتهم اقرب إلى العربية و طغيان العربية على تعاملاتهم و محيطهم . إن انتقال اللغة و اللهجات الأخرى غير العربية إلى مدارسنا أمر خطير على تكوين شخصيات التلاميذ و الأجيال القادمة والواقع يشهد بذلك .فلابد من إعادة الاعتبار لهذه اللغة لا باعتبارها لغة القرآن والشرع والعلم والأدب فقط بل إنها تحمل المروءة وتشبع عقل الطفل الصغير وتزيد من تعلقه بعاداته وثقافاته و دينه وذلك كما كان منذ سنوات ماضية التي انتهجتها الدولة من خلال سياسة التعريب و ابعادها السياسية و الثقافية :"إن التعريب في الجزائر ليس مجرد تغيير لسان الشعب هناك بل هي قضية إعادة الإنسان الجزائري إلى مقومات شخصيته الوطنية العربية الأصيلة ،التي عملت السياسة الفرنسية على طمس معالمها "11.

إن الواقع الحالي للمدرسة الجزائرية يكشف عن الضعف اللغوي الذي يعاني منه أبناؤنا في مختلف المراحل والتخصصات الدراسية إلى الجامعة ونفور جلهم من علوم العربية وخاصة نحوها بحجة الصعوبة و الجفاف وأنها لغة لا تصلح للتعامل والتدريس والتعلم . ورغم كل الجهود و المناهج الجديدة في استثمار العلوم اللسانية الحديثة والمعاصر لتعليم العربية مازالت المعاناة والتأوهات تصدر من المدرسة الجزائرية بصعوبة اللغة العربية في نظرهم و الضعف فيها. وذلك لأسباب عديدة اهما المحيط والبيئة خارج المدرسة التي شكّلت لغة موازية للعربية و نشرها عبر الاعلانات والتلفزيون وخاصة الوسائل الحديثة (الفيسبوك) وغيره واللغة الهجينة المختصرة التي طغت على الرسم والنطق .

إذن لابد من إجراءات لحماية أبنائنا من التدهور اللغوي في المجتمع والحفاظ على هويتهم وأخلاقهم ،خاصة في ظل التحولات التي يشهدها المجتمع الجزائري في ظل العولمة و تحديد المناهج العربية منها و القادمة من وراء البحار أو كما اصطلح عليها بعض المنظرين بالمناهج المعلبة .وأهم هذه الإجراءات ما يلي:

-01-حث المعلمين والمتعلمين وإلزامهم بالتواصل داخل الحرم المدرسي باللغة العربية وتجنب لغات الشارع واللغة الأجنبية عن هوياتنا وتقاليدنا .

-02-توعية المحيط الاجتماعي والمدرسي بأهمية المطالعة باللغة العربية و تشجيع لكتب القيمة المفيدة لما لها من أهمية في فتق لسان الطفل الجزائري المتمدرس وإشباع عقله وزيادة مروءته .

-03-الاهتمام بالبحوث والدراسات المعمقة حول تعليم العربية وأهميتها في تكوين النشأ وتربيته وحمايته من أي مناهج غريبة عن الجزائريين.

-04-مواصلة سياسة التعريب في التخصصات المختلفة وعلى جميع المستويات .

-05-إدخال اللغة العربية في الممارسات والاستعمالات اليومية للفاعلين داخل المجتمع الجزائري خاصة المحيط الخارجي والإعلام.

لابد من تفاعل وتضامن كل الجهود لتحسين مستوى أبنائنا في اللغة العربية وتحسيسهم بمدى اهميتها لأنها اللغة التي اختارها الله لعباده والباقية إلى يوم الدين ولو لم ينصرها أهلها . كما لها اهمية في تربية النشأ وتكوينهم لغة ومروءة ومنهجا . لأنها تؤثر في الأذهان معناها ويشهد التاريخ الطويل بذلك لها .

ويكفي ما خططه الغرب من أجل القضاء على الاجيال من خلال اللغة العربية كلويس التاسع عشر يقول أنور الجندي: " وتعد وصية لويس التاسع عشر أخطر وصية في هذا الاتجاه فهي التي فتحت الباب واسعا أمام معركة قوامها(التبشير والاستشراق والغزو الثقافي والتغريب). وقد قامت على أثرها حركة أوربا المعروفة إلى ترجمة القرآن والتعرف على الإسلام ومن ثم أخذت تتشكل تلك النواة في المعاهد الغربية وفي الكنائس ترمي إلى دراسة اللغة العربية والاسلام والقرآن للكشف عن الجوانب التي يمكن الوثوب منها ..."12 فننظر كيف حاولوا الدخول إلى الأجيال من خلال اللغة العربية .

دور العربية في حماية الطفل الجزائري من هيمنة العامية على ملكته التواصلية والذهنية:

يقول الشيخ أحمد شاكر :" ...الأمة التي نزل بلسانها الكتاب الكريم يجب عليها أن تعمل على نشر دينها و نشر لسانها ونشر عاداتها وآدابها بين الأمم الأخرى... "13

ففهم اللغة العربية هو فهم لكتاب الله و سنة رسوله صلى الله عليه وسلم و بالتالي نتخلق بما أراد الله أن نتخلّق وينعكس الشرع علينا وأحكامه الصحيحة بفهم العربية صحيحة .

وقال الرافعي رحمه الله تعالى :"ما ذلّت لغة شعب إلا ذلّ ، ولا انحطّت إلا كان أمره في ذهاب وإدبار ومن هذا يفرض المستعمر لغته فرضا على الأمّة المستعمَرة ،ويركبهم بها ،ويشعرهم عظمته فيها ، ويستلحقهم من ناحيتها،فيحكم عليهم أحكاما ثلاثة في عمل واحد :

أما الأول : فحبس لغتهم في لغته سجنا مؤبدا.

أما الثاني: فالحكم على ماضيهم بالقتل محوا ونسيانا .

أما الثالث: فتقييد مستقبلهم في الأغلال التي يصنعها،فأمرهم من بعدها لأمره تبع."14

و بالتالي سوف يتأثر الجيل بعد ذلك بهذه الأمور الثلاثة التي ربما ظهرت في المجتمع الجزائري خاصة أن فترة الاستعمار الفرنسي كانت طويلة جدا فنجد ذوبان شخصيات أبنائنا في اللغة الفرنسية في جميع المعاملات التجارية الدراسية المكالمات حتى عن طريق النت يكتبون بالفرنسية المختصرة وإن كتبوا بالعربية يكتبونها بأبجديات فرنسية .

مما يؤثر ذلك على عقول أطفالنا من خلال هذه اللغة الأجنبية التي لا تمت بصلة لعاداتنا وأخلاقناودِيننا. حتى أصبحت اعتيادية في الوسط المدرسي وخارجه .يقول شيخ الاسلام ابن تيمية :" اعلم أنّ اعتيادية اللغة :يؤثّر في العقل والخلق والدين،تأثيرا قويا بيّنا،ويؤثّر أيضا في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين،ومشابهتهم:تزيد العقل والدين،والخلق"15.

ولقد كان علماء هذه الأمة على وعي كامل بأثر اللغة في تكوين الأمة، وخطرها في تكوين شخصية الطفل المسلم وغيره . ونحن نرى اليوم خلط العربية في مجتمعنا الجزائري باللغة العجمية الغريبة عنا و كيف انتقلت هذه العدوى إلى أبنائنا في الشارع خاصة.لهذا كره الشافعي رحمه الله تعالى لمن يعرف العربية ان يسميّ بغيرها ،وأن يتكلّم بها خالطا لها بالعجمية،وهذا الذي ذكره،قاله الأئمة مأثوراعن الصحابة والتابعين .16

وقال رحمه الله تعالى : "ومازال السلف يكرهون تغيير شعائر العرب حتى في المعاملات حتى قال مالك رحمه الله :" من تكلم في مسجدنا بغيرالعربية أخرج منه"

فالعربية لها دور هام و فعّال في تربية النشىء و وقايته من أي تحوّلات تطرأ عليه في مجتمعه .فقد يقول البعض المحيط لا يهمل العربية بل يتجه نحو الرمز لبيان الأشياء و اختصارها .يقول محمود شاكر رحمه الله تعالى :"إني أرى اللجوء إلى الرمز ،ضربا من الجبن اللغوي فاللغة إذا اتسمت بسمة الجبن كثر فيها الرمز وقلّ فيه الإقدام على التعبير الواضح المفصح"17.لأان العربية شجاعة في تعبيرها وفي اشتقاقها ،وفي تكوين حروفها ،ليست للغة أخرى .

كما نرى كم من علمائنا الذين اهتموا بإصلاح حال مجتمعنا وعلى رأسهم المدرسة العلاّمة الشيخ البشير الإبراهيمي رحمه الله رحمة واسعة .فهو يرى ونرى في كتاباته ما تكّون اللغة العربية حصيلة التفاعل الملموس مع نزعته العربية الاسلامية،فهي عنده تتلاحم مع الاسلام والعروبة تلاحما مكينا .وكان دائما المنادي بضرورة تعليمها للنشئ لأنها في القطر الجزائري ليست غريبة ولا دخيلة بل هي في دارها وبين حماتها ،وهي ممتدة الجذور مع الماضي ... .

فاللغة العربية أساسها التواصل الاجتماعي ولا يأتي هذا إلا عن طريق الخطاب ويتجلى ذلك في الشعر قبل الاسلام والخطابة ، وفي القرآن والحديث لتنظيم والتشريع لحياة المسلمين. وهذا ما نجده عند اللسانيين المحدثين اليوم وإحساسهم الطاغي بالوظيفة الاجتماعية للغة .يقول الدكتور سعد مصلوح :"أدرك علماء اللسان أن اجتزاء الجمل يحيل اللغة الحية فتات وتفارق من الجمل المصنوعة المجففة أو المجمدة."18 فلهذا علينا إعادة دمج ابنائنا داخل المدرسة خاصة بضرورة وأهمية الاتصال بالعربية وضرورة تعلّمها عن طريق تسخير مناهج سهلة ويسيرة وتحفيزهم على ذلك من خلال البرامج والتأليف والحفلات والرحلات والأيام الدراسية المفيدة لهم وإشراكهم في ذلك.

-5-خلاصة: يرى الدكتور عبد المالك مرتاض في قضية تغريب اللغة العربية عن المجتمع الجزائري و كيف يمكن تعليمها للنشئ الجديد حتى يتسنّى له اكتساب هويته ووقايته من التحولات الخطيرة التي ظهرت في المجتمع الجزائري كالتالي :

-01-الإكثار من المحادثة الفصيحة بين المعلّم والأطفال المتعلمين في المدرسة ،في السنوات الثلاث من المرحلة الابتدائية ، وذلك ابتغاء تعويدهم على استعمال عربية فصيحة معربة حين يتحدّثون، وتحسيسهم بالتعامل مع نصوص بسيطة بديعة و بعبارات تعبّر عن الحياة بشقّيها اليومي والعام، هي وفي الوقت نفسه،تكون عالية الفصاحة،على بساطتها .

تمكين الآباء أبناءهم الصغار من مشاهدة "الرسوم المتحركة" الناطقة باللغة العربية ،فهي خير وسيلة لتعليم النشء العربية السليمة،بل الفصيحة أيضا.إن تعلّم العربية السليمة،ودون عناء بل باستمتاع،بواسطة الوسيلة السمعية البصرية،أفضل من تعلّم قواعد النحو الثقيلة،بطريقة تعليمية تقليدية وعسيرة تنفّر الطفل من العربية .

02 يمكن نقل هذه الوسيلة السمعية البصرية (أفلام ،الكرتون، بلغة المشارقة،أو "الرسوم المتحركة بلغة المغاربة "إلى المدرسة نفسها ،بالنسبة إلى المدارس النموذجية ،بحيث يستمع المعلّم و أطفاله معا .لحكاية متسلسلة،وذلك حتى يستعاض عن غياب حدوث هذا لبعض الأطفال في منازلهم ،لأسباب خاصة . إن مثل هذه الوسيلة السحرية تعوّد الأطفال على استعمال العربية استعمالا فصيحا صحيحا ،وهم في الوقت نفسه يستمتعون بمتابعة الحكايات الخيالية البديعة.

-1-لا بد من العمد إلى الفتوى اللغوية (التزام التلفزات الرسمية بتقديم نصف ساعة أسبوعيا للملاحظات اللغوية التقويمية،مثل : "يقال ولا يقال").

تأسيس مجلة للغة العربية يشرف عليها مجمع علمي عربي مركزي،تعنى بكل ما له صلة بحياة اللغة العربية واستعمالها في المجتمع،وتطورها في حقول المعرفة المختلفة).

العمد إلى شكل العربية في كل الطبعات، المدرسية وغير المدرسة .

العناية الشديدة بالكتاب المدرسي في مرحلتي التعليم الابتدائي والثانوي معا وذلك باقتناء النصوص الفصيحة البينة الفصاحة مع تدقيق تصحيح اللغة والابتعاد عن أخطاء الخاصة وتوصية المعلمين بلفت انتباه المتعلمين إلى بعض مسائل العربية اللطيفةالمندسّة في النصوص لغة ونحوا وبيانا،وذلك حتى ينشّأ الطفل الجزائري على استعمال لغة عربية نقية صافية، ومعربة أيضا .19

6-الخاتمة :"إن اللغة،من حيث هي، ظاهرة اجتماعية تتواكب ،تقدّما أو تخلّفا ،مع الناطقين بها ،فإن تقدّموا تقدّمت ، وإن تخلّفوا تخلّفت، لأنها امتداد لكيانهم ،ولأنها مرآة لثقافتهم، ولأنها مرآة أيضا لعقلهم وطرائق تفكيرهم ..."20

هوامش البحث:

[1]-وليد العناتي اللسانيات التطبيقية وتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها.دار الجوهرة للنشر والتوزيع الأردن ص218.

[2]-: إبراهيم بيومي مدكور،في اللغة والأدب، ص 54، سلسلة أقرأ العدد:337 . دار المعارف بالقاهرة، يناير1971.

3- خاشع بن شيخ إبراهيم حقي، مجلة الفيصل،اللغة العربية والمسيرة التعليمية في الوطن العربي،العدد 312،ص 59.

4- عباس الجراري،هويتنا والعولمة للدكتور، ص 43، ومابعدها، منشورات النادي الجراري، رقم 18، مطبعة الأمنية، الرباط، الطبعة الأولى، 1421 هـ/2000م.

المرجع نفسه، ص 59 - 60[6]-

عن مجلة الفيصل، ع : 312، ص 61[7]-

7-الفيصل ع، 312، ص 61.

[9] د .كمال بشر،حوارات في اللغة والثقافة .ط1 ،دارغريبللطباعةوالنشر،القاهرة،2010،ص55

[10]-الآية، 31، سورة البقرة.

[11]-نازلي معوض أحمد ،1986 ،التعريب والقومية العربية في المغرب العربي ،ص101.

[12]-أنور الجندي ،الموسوعة الإسلامية ،التربية و ناء الأجيال في ضوء الإسلام ،دار الكتاب البناني بيروت ،ط1982 ،ص 13-

[13]-احمد شاكر ، تحقيق الرسالة للشافعي ، ص41.

[14]- الرافعي ، وحي القلم ،ج 33/3ص.

[15]-شيخ الاسلام ابن تيمية ،اقتضاء الصراط المستقيم ،ص 207.

[16]- المصدر نفسه ،ص 204

[17]-محمود شاكر ،أباطيل و أسمار ،ص 435.

[18]-د.سعد مصلوح من نحو الجملة إلى نحو النص ص 410.

[19]-عبد المالك مرتاض ،مقال ، العرب ولغتهم ،وجها لوجه.

[20].-المرجع نفسه ، الخاتمة.